جسد الجمهورية ...

قصة بقلم عبد الرحمن البيك

الى الذين يبعثون الروح في الجسد .. الى شعب في الجزائر ... يكافح

لفظهم الضباب فجأة ، كانوا موزعين على جانب الطريق بدون انتظام . فسادت بيننا موجة من الصمت ، وقد سكت هدير المحرك على حين غرة ، فلم نعد نسمع الا صرير الرياح وهي تخترق الجبال البعيدة التي تشبه انف جسد يتنفس ...

وهمس الرجل العجوز في اذني قائلا « من هؤلاء .. ». وحدقت مليا فيمن استوقفنا ثم قلت للشيخ .. « لقد وصلنا حدود المنطقة ، فاذا ما تخلصنا من اولئك الصعاليك وصلنا الجماعة » .

كانوا مدججين بالسلاح ، وكان بينهم شاب يتشح رداء طويلا وخوذة رمادية ، فسألت السائق عن حل ، ولكن وقته لم يتسع للاجابة ، فقد نزعه جندي عن المقود ثم ما لبث حتى غمم امره علينا بالنزول .

وبرحنا امكنتنا .. كنا خمسة اشخاص انا وسائق جريء وشيخ طاعن وامرأة قبيحة الشكل وطفلة اسمها منى . كنا نمثل دور الاسرة البريئة التي اجبرتها ظروف القتال على التنقل ، ابتغاء للامن وطلبا للطمأنينة. ولكن الواقع اوحى لهم بالشك .. فأمرونا بان نكشف غطاء صندوق السيارة .. فترددنا وتبادلنا النظرات متوجسين .. فقد كدنا نشرف على هاوية الفشل ، فاتبعنا اسلوب المماطلة والتلكؤ .. ولكن ذلك زاد ريبتهم وقوى رغبتهم في تمحيص امرنا وتدقيق شأننا .. فنحزونا بالحراب وهددونا بالقتل ، واخيرا نزع السائق غطاء الصندوق ، ففزعوا مما شاهدوا وذهلوا مما رأوا . فاغمضوا اعينهم ثم تنافروا متباعدين وتفرقوا مشمئزين . واقتلعتني يد جندي من مكاني ، واذا بي امتثل بين يدي الضابط فاخذ هذا يسألني بالفرنسية .. بعضا من أسئلة، فهمت فحواها ولكنني اصطنعت الجهل، فاخذت اهز رأسي واقلب كفي وشفتي . مما زاده قهرا وغيظا ، فعاد يقول بأن لديه معلومات بشأن سيارة تحمل الذخيرة الى المحاصرين .. ثم اضاف بأنه لن ينخدع ولن يتوانى عن الضرب بيد من حديد على امثالنا من الاشقياء . واخيرا قلت له بالايماءة بان تلك الجثث التي انكشفت عنها الغطاء ليست الا حصاد معركة الامس .. ابي وبعض اخوتي وابناء جيراني .. كلهم ماتوا دفاعا عن مقدراتهم .. فمن الواجب والحالة هذه ان نقوم بدفنهم في جوار تلك التلال المخضبة بأشجار الزيتون ..

ولكن الضابط لم يصدق دعواي فأمر بتعذيبي ..

كان الضباب لا يزال ينسج غشاوته الكثيفة بيننا ، فاستطعت الافلات ، وفي حفرة الى جانب الطريق القيت بنفسي ، ثم اعتصمت في سكوت وصمت عميقين ..

وانطلق الجنود في أثري .. وراحوا يبحثون ويتقصون ، وكنت اشاهدهم من مكاني وكانهم الاشباح . وكان الضابط يصدر اوامره السريعة وهي ممرغة بالحمق والغيظ والغضب ولكنه لم يكن يحظى الا بصدى بعيد يتكسر على السفوح ..

التفت نحو اليمين ، فبدت لي السيارة وكأنها ظل رقيق، فخطر لي ان التجيء اليها وانطلق بها . ولكنني تذكرت امر السائق والرجل الطاعن والمرأة القبيحة والطفلة الصغيرة .. فأحجمت . وكان الجنود انذاك يتوافدون تترى نحو ضابطهم، يبلغونه فشلهم ويقصون حيرتهم ويزفون اخفاقهم واخيرا صاح الضابط بملء صوته ، ينذرني بتسليم نفسي ... فرددت السهول صوته وابتلعت حجب الضباب رنته حتى ضمتها اطراف السهول التي تموت عند سفوح التلال. فلما عرف انني لن اذعن لارادته اصدر امرا باعدام السائق والعجوز والمرأة والطفلة منى .

ارهبتني الفكرة ، وافزعني هول نتائجها ، فازدادت ضربات قلبي وتصاعد الدم الى وجهي حارا، فترك اثرا يشبه الصفعة الشديدة ، فترددت ولكنني ما لبثت حتى عزمت على امر !! ...

كان السائق شابا لطيفا ، كنت اعرفه منذ نعومة اظافره، فقد نشأ في القرية نشأة اليتامى ، فقد افتقد ابويه حينما اخلت قوات الاحتلال القرية من سكانها . اما الرجل العجوز فقد كانت حياته انموذج نضال .. افتقد ابنه قرب وهران، وكذلك والده في مدينة الجزائر ، فعاش متنقلا بين جماعات الثوار ، يربط بينها بالخدمة ، ويوثق بينها بالتفاني حتى استقر في قريتنا منذ امد ، وكان الزمن احاله على التقاعد فلما طرحت بالامس فكرتي على بساط البحث نالت اعجابه وتطوع للقيام باعباء المهمة . اما المرأة فهي فاقدة الابوين والزوج ، كأي امرأة جزائرية عاشت في حمأة النضال ، وعرفت طعم الحياة التي لا هناء فيها الا بالدفاع عن الحياض والذود عن المقدرات . وقد كانت تتمنى ابدا ان تلقى حتفها

بعد ان تؤدي خدمة جليلة للوطن . واما منى .. وهي تلك الفتاة الصغيرة التي رافقتنا ، اتماما لعناصر التمثيلية التي جعلناها ستارا لعملية عسكرية ، فهي ابنتي ... عرفتها منذ نعومة اظافرها ايضا فتعلقت بها وتعلقت بي . كانت امها قد لقيت حتفها في الحقل .. حينما مرت سيارة فرنسية ، تقل تلة من الجنود ، فسألوها امرا شنيعا .. فمنعتهم .منعتهم بكل ما كان لديها من غيرة شرف وقوة ايمان وجذوة نبل وشيمة اخلاق ، فبقروا بطنها .. وتركوها تحت الشمس التي شهدت ذلك وبين احضان الرياح التي زأرت وكأنها جسد اقشعر وبدن ارتجف ..

وبعد حين ، أفقت فسمعت من جديد انذارات الضابط تشق عنان الفضاء ، فانفطر قلبي حزنا وامتلأت نفسي كآبة .. ولكني لم أذعن .. فقد رنت في أذني صيحات ثلاثمائة مجاهد ، مقيدين بين الصخور بحصار مكين .. انهم لا شك متلهفون للسلاح كي ينطلقوا من عبودية ذلك الطوق الذي ضربه الفرنسيون حولهم وأمعنت النظر في الضباب ، فتكسرت حجبه ، وتلاشت سدوده واذا بي ارى قافلة الاموات تساق الى حتفها .. السائق ومن خلفه الرجل العجوز ثم المرأة ومعها ابنتي منى .. آه .. منى ليتهم تركوها .. بل ليتني فديتها بنفسي ولكن هذا لن يحل المعضلة ، ان النصر بحاجة الى اكثر من طفلة ..

وابتعدت قافلة الاموات عن انظاري ، ودوى صوت الضابط من جديد ، ولكنه لم يفلح في استمالتي ، وأخيرا خاطبني السائق بملء صوته ورجاني ألا اذعن .. وكذلك فعل الرجل العجوز والمرأة القبيحة الشكل . اما ابنتي منى فقد صاحت « بابا ... بابا ... » .. فبكيت ، وقد تلهفت لان اسمع منها مزيدا من الكلام ولكنها لم تعاود النداء .. فقد سكت ثغرها الوردي الذي كنت أقبله كل مساء ... اجل بكيت كثيرا بينما كنت أتسلل نحو السيارة وهناك وجدت جنديا يقوم بحراستها فأمسكت عن النشيج واقلعت عن النحيب ثم رميته بحجر وصعدت السيارة وجلست خلف مقودها . وقبل ان اغادر مكاني اخرجت رأسي من النافذة ، فرأيت ظلالا مرصوفة الى جانب الطريق يقابلها ظلال اخرى تسدد البنادق .

وأدرت رأسي الى الامام فوجدت امامي قطرتين من الدمع تقتربان مني وكأنهما موج اليم .. ولكن النشيج ذرفهما على حين غرة ، فحسبت نفسي انني نجوت من الغرق .. فقد كنت غريق الجهاد .. غريق النضال ، غريقا يبحث عن قارب له فيه ملكية شرعية .

واخيرا دوت طلقات البنادق في الارجاء ، فأدرت محرك السيارة خلال انتشار أزيزها ، فلم تنقل الرياح خبر فعلتي فشكرتها انها لم تخن .. انها ايضا تجاهد من اجل الاستقلال .

ولما انطلقت بالسيارة ، اخترقت حاجزا خشبيا ثم انحرفت نحو التلال خلال درب ملتوي ..

ولما وقفت بالسيارة ، القيت نظرة نحو الخلف فشاهدت سحابة كثيفة من الضباب تغطي الطريق وكأنها القبر .

أما في إطراف السفوح الصاعدة في شموخ نحو قمم تعانق السحاب ، وفي ضفاف النهر العابس الهادر ، وفي جنبات الحقول الباسمة ، فقد رأيت جسدا يتحرك ليأخذ مكانه تحت الشمس .

وأخيرا نزع المجاهدون الجثث فانكشف لهم السلاح فتوازعوه وانتظروا الليل .. فالليل يعمل بجانبهم من اجل الاستقلال .. كالرياح .

وعند الافق الذي ابتسم عن اشعة الشمس رأيت وجه ابنتي .. وعبر صفير الرياح سمعتها تنادي .. « بابا .. بابا .. »

حلب — **عبد الرحمن البيك**

الطبقات الكبرى

لابن سعد

بعونه تعالى تم طبع هذه الموسوعة الاسلامية الكبرى التي تعتبر عمدة المؤرخين والباحثين في سيرة الرسول الاعظم وتاريخ الصحابة والتابعين . وهو يقع في ٣٢ جزءاً ــ تضمها ٨ مجلدات ــ وثمن الجزء الواحد

٢٠٠ قرش لبناني

فالرجاء من حضرات المشتركين ان يبادروا الى استكمال مجموعاتهم قبل ان يصبح ثمن الجزء

٢٥٠ قرشا لبنانيا

الفهارس الكاملة للكتاب قيد الاعداد

الناشر

دار صادر و دار بيروت